

الفصل الأول

املاحظات الإيجابية فى العقيدة و الشريعة

و يحتوى على :-

- الملاحظات الإيجابية فى العقيدة .
- الملاحظات الإيجابية فى الشريعة .
- شمولية الإسلام .

obeikandi.com

مقدمة

سأتناول في هذا الفصل الملاحظات التي تُحسب للمؤلف في حديثه عن الإسلام عقيدة وشرعية وتاريخ الأمة الإسلامية ورسولها الكريم صلى الله عليه وسلم ، والتي أصاب فيها جوستاف لوبون وأعطى للإسلام والمسلمين حقوقهم فيها ، وأنصف الإسلام فيها ، ولا نعدم الحقيقة في كثير من تلك الموضوعات فقد أصاب المؤلف في الكثير من النقاط والمباحث التي تناولها مثل العلاقات الأوضاع الاجتماعية والقضائية في الإسلام ، وحقوق الرقيق في الإسلام وأوضاع الأجنبي في ديار الإسلام .

المبحث الأول

الملاحظات الإيجابية في العقيدة :-

أبدأ بملاحظات المؤلف عن العقيدة وفي هذا البحث نبداً ببيان معنى العقيدة .
والمعنى اللغوي للعقيدة : في المعجم الوسيط ^(١) : " الحكم الذي لا يقبل الشك فيه
لدى معتقده ، وفي الدين : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله وبعثة
الرسول والجمع عقائد " .

والمعنى الاصطلاحي للعقيدة : " هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به
أولاً وقبل كل شيء إيماناً لا يرقى إليه شك ، ولا تؤثر فيه شبهه ، ومن طبيعتها : تضاف
النصوص الواضحة على تقريرها ، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع
ما حدث بينهم من إختلاف بعد ذلك فيما وراءها ، وهي أول ما دعا إليه الرسول ، وطلب
من الناس الإيمان به في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهي دعوة كل رسول جاء من
قبل الله ، كما دل على ذلك القرآن في حديثه عن الأنبياء والمرسلين " ^(٢) فيقول الله تعالى :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾
^(٣) . ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ^(٤) ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى
قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾ ^(٥) ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَادِ
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ^(٦) . ويقول سبحانه :

- ١- المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ط ٢ ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٨٥ ، ص ٦٢٧ .
- ٢- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ط ١٣ ، دار الشروق ، ١٩٨٥ ، ص ٩ ، ١٠ .
- ٣- سورة الأنبياء ، آية ٢٥ .
- ٤- سورة النحل ، آية ٣٦ .
- ٥- سورة الأعراف ، آية ٥٩ .
- ٦- سورة الأعراف ، آية ٦٥ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَهُمْ صَلَاتًا قَالَ يَقْتَرِبُونَ أَقْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ...﴾ (١)
 ويقول تعالى أيضا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَهُمْ شُعَبًا قَالَ يَقْتَرِبُونَ أَقْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
 مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ...﴾ (٢).

ويشهد جوستاف لوبون (٣) في حديثه عن العقيدة أن سهولة الإسلام العظيمة
 تُشتق من التوحيد المحض وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام فيقول: "وتشتق سهولة
 الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي السهولة سر قوة الإسلام، وإدراكه سهل خالٍ
 مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالبًا، من المتناقضات والغوامض
 ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد بمساواة
 جميع الناس أمام الله وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ويدخل النار من يعرض
 عنها. وأنتك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن
 يعتقد ويسرد لك أصول في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي
 لا يستطيع حديثًا عن التلايث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من
 علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل ويركز الدين الإسلامي على عقيدة التوحيد
 التي هي لب العقيدة الإسلامية وروح الوجود الإسلامي، المتمثلة في الإيمان بإله واحد له
 الخلق والأمر وإليه المصير، وهو رب كل شيء، ومدبر كل أمر، وهو وحده الجدير
 بالعبادة والشكر والطاعة لا الجحود والكفر والعصيان (٤). وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 وَكِيلٌ ﴿١٠١﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَلِيبُ ﴿١٠٢﴾﴾ (٥).

١- سورة الأعراف، آية ٧٣.

٢- سورة الأعراف، آية ٨٥.

٣- حضارة العرب، ص ١٢٥.

٤- د/ يوسف القرضاوي، حقيقة التوحيد، ط ٢، مكتبة وهبة، ١٩٨٠، ص ٥.

٥- سورة الأنعام، آية ١٠٢، ١٠٣.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي^(١) في التوحيد الأمور به " إنه توحيد اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي سلوكي ، وبعبارة أخرى هما توحيدان لا يفنى أحدهما عن الآخر : توحيد في المعرفة والإنبئات والاعتقاد وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة . فلا يقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يقم بتوحيد الله سبحانه : علماً واعتقاداً ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحده كذلك : قصداً وعملاً ، بأن يفرده عزوجل بالعبودية الكاملة والطاعة المطلقة ، والدال له والإنابة إليه والتوكل عليه والخشية منه والرحاء فيه ... إلخ " .

وقد بنى الدين الإسلامي على اليسر والسماحة في تعاليمه التي جاءت تلبية لطبيعة الإنسان على وجه معتدل ، لا إفراط فيه ولا تفريط^(٢) وهذا واضح من قول الله تعالى ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ تَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا...﴾^(٣) ، وقوله كذلك ﴿...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾^(٤) وقوله سبحانه : ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾^(٥) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " يسروا ولا تعسروا وبشروا وتنفروا " ^(٦) وقوله صلى الله عليه وسلم " إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا " ^(٧) .

ويقر بسماحة الإسلام ويسره وعقلانيته المستشرق توماس أرنولد^(٨) حيث يقول :

" الإسلام في جوهره دين عقلي ، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الإشتقاقية

١- حقيقة التوحيد ، ص ١٧ .

٢- محمود شلتوت ، من توجهات الإسلام ، ط ٨ ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٢١ .

٣- سورة البقرة ، آية ٢٨٦ .

٤- سورة البقرة ، آية ١٨٥ .

٥- سورة الحج ، آية ٧٨ .

٦- رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب " الذين يسر " ج ١ ، ص ٩٣ ، رقم ٣٩ عن أبي هريرة .

٧- رواه البخاري في كتاب العلم ، باب " ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوله بالموعدة " ، عن أنس

رضي الله عنه ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، رقم ٦٩ .

٨- سير توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

والتاريخية . فإن تعريف الأسلوب العقلي بأي طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ، المستمدة من العقل والمنطق . ينطلق عليها سُمّ الانحطاق .

والحق أن محمداً الذي كان متحمساً لدينه ، كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ، و نار الإقتناع تلك الصفة القيمة التي بثها كثيراً جداً في أتباعه – قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام : على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير وإن لدينا كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحداية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه ، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة . وهذان المبدأن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني ، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق ، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها فهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام . ومما لا سبيل إلى إنكاره أن كثيراً من عقائد اللاهوت ونظمه ، وكثيراً من الخرافات كذلك ، من عبادة الأولياء إلى استخدام المسابح والتعاويذ قد طعم به الجزعة الرئيسي للعقيدة الإسلامية . ولكن على الرغم من التطور الخصب ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى لتعاليم النبي، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرا عليه تغيير أو تبديل ، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة .

وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعثره التحول . ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المرايا ، وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي ، والبساطة الجوهرية في الصور التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلهب حماسه وغيره . إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود -عامة المسلمين وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد خالية من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعاً لذلك في

متناول إدراك الشخص العادي ، أن تملك - و أنها لتمتلك فعلاً - قوة عجيبة ، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس .

وقد أصاب المؤلف كذلك حينما أقر صراحة أنه من دواعي انتشار الدين الإسلامي واقتناع الناس به ليس في البلاد المفتوحة فحسب ، بل كل من عرف أصول الدين الإسلامي ، وخاصة أنه يدعو إلى العدل والإحسان فيقول : " وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعده على إنتشاره في العالم ، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الدين الإسلام ، كما نفسر السبب في عدم أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة (١) .

والإسلام من أكثر الديانات ملائمة - خشاعات العالم ، و من أظلمها تهذيباً للنفوس و حملاً على العدل والإحسان و التسامح ، و إن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة ، تراها مضطرة أن تتحول تحولات ما لتستمر بها الجموع ، وهي لا شك ، دون الإسلام في شكلها المعدل هذا " (٢) .

فمن الأسس التي قام عليها الإسلام الحنيف و حض المسلمين على نشرها والعمل بها " العدل " و قد عرفه ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق : " بأنه فضيلة للنفس تحدث من إجتماع الفضائل الثلاث : الحكمة والعفة والشجاعة ، و ذلك عند مسالة هذه القوى بعضها لبعض و استسلامها للقوة المميّزة ، حتى لا تغلب و لا تتحرك نحو مطالبها على سوء طبائعها ، و يحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ، ثم الإنصاف من غيره له " (٣) .

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١٢٥ .

٢- نفس المرجع ، ص ١٢٦ .

٣- د / أحمد محمد الحوفي ، من أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم ، دار بهصة مصر ، ص ١٠٦ .

و هذا يعني إعطاء كل ذي حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ، و مواخدة المسيء ، أو المقصر على قدر إساءته و تقصيره بدون إعنات أو محاباة^(١) و قد حث الله تعالى المسلمين على الأمر بالعدل و الحكم به فيما بينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْتَنَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴾^(٢) .

و لم يأمر الله سبحانه بالعدل بين المسلمين فحسب ، بل أمر بإقامته أيضا بين الأعداء فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٣) و حتى بين أهل الكتاب كذلك فيقول تعالى: ﴿ ... وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٤) وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَفْرِخُوا بِمَا تَبَيَّنَ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٦) وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٧) وَقَفِينَا عَلَىٰ مَا أَنْزَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٨) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٩) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

١- نفسه.

٢- سورة النساء ، آية ٥٨.

٣- سورة المائدة ، آية ٨.

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ... ﴿١﴾

وقد سار الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا النهج القويم فى إقامة العدل بين المسلمين وغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، ويظهر هذا من موقفه من الأسرى فى غزوات المسلمين ، وموقفه من الخزومية التى سرقت فأقام الحد عليها ، وكذلك موقف الخلفاء الراشدين والحكام المسلمين فى البلاد المفتوحة ، ووصايا الخلفاء لهؤلاء الولاة لإقامة العدل بين المسلمين ، ولسنا بصدد تفصيل هذه المواقف (٢).

وأما "الإحسان" فهو يعنى الإنعام والتفضل ، وهو الفعل الحسن الذى هو ضد الإساءة (٣). ويقول صاحب منهاج المسلم فى الإحسان : "المسلم لا ينظر إلى الإحسان ، وإنه خلق فاضل يجمل التخلق به فحسب ، بل ينظر إليه وإنه جزء من عقيدته ، وشق كبير من إسلامه ، إذ الدين الإسلامى مبناه على ثلاثة أمور وهى الإسلام والإيمان والإحسان ، كما جاء ذلك فى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام فى الحديث المتفق عليه لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وقال عقب انصرافه ، هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم ، فسمى الثلاثة ديناً" (٤).

وفى الحديث الكريم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "... قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال: صدقت ..." (٥).

- ١- سورة المائدة ، آية ٤٢ - ٤٨.
- ٢- د/ أحمد محمد الحوفي ، من أخلاق النبى ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ، على عبد الواحد واقى ، حقوق الإنسان فى الإسلام ، نهضة مصر ص ٦ ، - ١٢.
- ٣- د/ عتيق طيارة ، روح الدين الإسلامى ، ص ٢٠٧.
- ٤- أبو بكر الجزائرى ، منهاج المسلم ، ص ١٥٢.
- ٥- الحنبلى البغدادى ، جامع العلوم والحكم ، ط ٥ ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧ أخرجه الإمام مسلم فى أول كتاب الإيمان باب الإيمان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وهذا الحديث من حديث عمر بن الخطاب ٣٦/١ رقم ١ وأخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب سؤالات جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان عن حديث أبى هريرة ١١٤/١ رقم ٥٠.

وقد جاء ذكر الإحسان فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فجاء منها مقرونا بالإيمان وتارة مقرونا بالإسلام ، وتارة مقرونا بالتقوى أو بالعمل الصالح^(١) . فالقرون بالإيمان كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٢) .

أى بالعودة على المحتاج ، وقيل أحسنوا الطن بالله ، وأحسنوا فى أعمالكم بامتثال الطاعات ولعله أول^(٣) وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(٤) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنُوا لِنَفْسِكُمْ... ﴾^(٥) أى أى أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية للغير أى عملتموها على الوجه المستحسن اللائق أو فعلتم الإحسان وما يترتب عليه من ثواب^(٦) والقرون بالإسلام كقوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ... ﴾^(٧) والمقربون بالتقوى فى قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... ﴾^(٨) و تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الله تعالى فى الجنة ، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان^(٩) . ويقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ... ﴾^(١٠) أى إحسان الأعمال والعبادة أى الإتيان بها على الوجه اللائق^(١١) و كذلك قول الله تعالى عن المحسنين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

- ١- نفسه ، ص ٤٦ .
- ٢- المائدة ، آية ٩٣ .
- ٣- الألويسى ، روح المعنى فى تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، ج ٢ ، دار الفكر ، ١٩٩٧ ، ص ١١٨ .
- ٤- سورة الكهف ، آية ٣٠ .
- ٥- سورة الأعراف ، آية ٧ .
- ٦- الألويسى ، روح المعنى ، ج ٩ ، ص ٢٧ .
- ٧- سورة البقرة ، آية ١١٢ .
- ٨- سورة يونس ، آية ٢٦ .
- ٩- الحنبلي البخداوى ، جامع العلوم و الحكم ، ص ٤٣ .
- ١٠- سورة النحل ، آية ٩٠ .
- ١١- الألويسى ، روح المعنى ، ج ٨ ، ص ٣٢١ .

﴿١٢٨﴾^(١) والإحسان هنا بمنزلة السير والسلوك فى الأحوال والمقامات إلى أن ينتهى إلى
محو الرسم والوصول إلى مخدع الأنس^(٢) وقوله تعالى :

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِن يَنَالُهُ النَّفْسُ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ
لِشْكُرِكُمْ وَاللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَيَسِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) أى المخلصين فى كل ما يأتون ويزرون
يزرون فى أمور دينهم ، وعن ابن عباس هم الموحدون^(٤) .

وعن الأخلاق فى القرآن يتحدث جوستاف لويون^(٥) بموضوعية فائقة وقد أصاب
أصابع فى قوله معترفاً بأن الدين الإسلامى يدعوا إلى مكارم الأخلاق التى دعت إليها
الديانات السابقة كاليهودية والمسيحية ، ولكن الإسلام فاق هذه الديانات لأن أهله
طبقوا هذه الأخلاق و تمسكوا بها على عكس الديانات الأخرى ، فيقول : " أصول الأخلاق
فى القرآن طيبة ، فالقرآن يأمر بالصدقة والإحسان والقرى والاقتصاد فى الرغائب
والوفاء بالعهد وحب الأقربين واحترام الوالدين وحماية الأيامى واليتامى وبما نجده
مكرراً فيه من درء السيئة بالحسنة ، وتتطابق أصول الأخلاق فى القرآن ما ورد فى
الإنجيل تقريباً : بيد أنه لا أهمية كبيرة لدراسة ما فى أحد الكتب من أصول الأخلاق ما
كانت مبادئ الأخلاق فى كل دين طيبة ، وليست مكارم الأخلاق التى تؤمر بها الأمم، إذأ
هى التى تجب معرفتها عند البحث فى شئونها ، بل ينظر إلى ما عملت به منها ، ولا
عجب ، فقد دلت المشاهدة على أن مطابقة الأعمال للاقوال ضعيفة جداً على العموم وقد
حاولنا فى الفصل الذى خصصناه فى كتابنا الأخير للبحث فى نشوء الأخلاق ، أن نثبت
أن نشأة الدين فى تكوين الأخلاق أمر ثانوي على العموم ، وأن الأخلاق وليدة
المنفعة والبيئة والرأى وقواعد الحقوق والانتخاب الطبيعى والتربية والذكاء و

١- سورة النحل ، آية ١٢٨ .

٢- الألويسى ، روح المعانى ، ج١ ، ص ٢٨٨ .

٣- سورة الحج ، آية ٣٧ .

٤- الألويسى روح المعانى ، ج١٠ ، ص ٢٣٥ .

٥- حضارة العرب ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

ما إلى ذلك ، وقد ذكرنا فيه أن أقدم الديانات لم تنص على أصول الأخلاق ، وأن النص على مبادئ الأخلاق لم يكن في غير أديان الهندوس و أديان موسى وعيسى ومحمد ، وأن هذه الأديان لم تصنع أكثر من تأييدها لما كان معروفاً ، وأن هذا التأييد قام على الأمل في الثواب والخوف من العقاب في اليوم الآخر ، وأن خوف العقاب لم يكن مهيمنا على أكثر الناس ما جعلت تلك الأديان غفران الذنوب أمراً سهلاً .

ومن أفضل المنازل عند الله سبحانه وتعالى و أكرمها حسن الخلق ومكارمها^(١) ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) كما جمع له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ حُذِرَ الْمَعْرُوفُ بِالْعَرَفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٣) وقال عليه الصلاة والسلام : " حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار"^(٤) وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، الذين يآلفون ويلفون "^(٥) وعن حسن الخلق قال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدواء الأدوية ؟ قالوا بلى . قال : الخلق الدني ، واللسان البذيء . وقال بعض الحكماء : من ساء خلقه ضاق رزقه . وقال بعض البلغاء : الحسن الخلق من نفسه في راحة ، والناس منه في سلامة ، والسيء الخلق الناس منه في بلاء ، وهو من نفسه في عناء وقال بعض الحكماء : عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فإن الثواء فيهم قليل^(٦) .

وهكذا فالإسلام يهدي إلى الأخلاق الفضلى والمثل العليا ، والقرآن الكريم الذي هو دستور المسلمين المنزل من عند الله تعالى الذي يعلم السر والنجوي وما هو أخفى الخليم

١- ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج٢ ، دار البيان العربي ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

٢- سورة القلم ، آية ٤ .

٣- سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .

٤- رواه الأمام أحمد ، رقم ١ - ٢٦٠ .

٥- رواه الترمذي في كتبه البر والصلة ، ج٤ ، ص ٣٢٥ ، رقم ٢٠١٨ ، وقال هذا حديث حسن وغريب و التوثيق : التمهيد والتذليل ، و فراش وطى لا يؤذي جنب الذنم ، و الأكتاف الجوانب ، أراد الذين جوانبهم و طينة يتمكن فيها من يصاحبهم و لا يتلذى . ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ج٤ ، ص ٢٢٢ .

٦- الماوردي ، أدب الدنيا و الدين ، تحقيق حمزة الشيرازي و آخرون ، القاهرة ، ص ٢٩٤ .

المبحث الثاني

الملاحظات الإيجابية في الشريعة :-

الشريعة في اللغة: في المعجم الوسيط ، ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام وهي الطريقة . و التشريع هو : سن القوانين ^(١) وعلى ذلك فهي المنهج ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ تُمْرَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا... ﴾ ^(٢) وكذلك ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا جَعَلْنَا مِنكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جُأ... ﴾ ^(٣) .

الشريعة في الاصطلاح : و الشريعة هي النظم التي شرعها الله أو شرع أصولها لياخذ الإنسان بها نفسه في علاقته بربه ، و علاقته بأخيه المسلم ، و علاقته بأخيه الإنسان و علاقته بالكون ، و علاقته بالحياه . ^(٤)

وفي تعريف آخر : هي كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله عزوجل سواء ما يتعلق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشري من رق الوثنية والتقليد والخرافات... و ما يتعلق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيغ الأهواء ، وفتنة الشهوات .

وما يتعلق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم والفسوق والاستبداد ^(٥) . ومن أجل هذا كله جاءت الشريعة بنظام مدني ينظم علائق الناس بعضهم مع بعض ، وعلائقهم بالسلطة والحاكمة ، ويصون لهم حقوقهم ويؤمن للجميع مصالحهم ، و يحقق في الأرض عزتهم وسيادتهم ^(٦) .

١- المعجم للوسيط ، ج١١ ، ص ٤٩٨ .

٢- الجاثية ، آية ١٨ .

٣- المائدة ، آية ٤٨ .

٤- محمود شلتوت ، الإسلام شريعة وشريعة ، ص ١٠ .

٥- عبد الله ناصح علوان ، محاضرة في الشريعة الإسلامية وفتيها و مصادرها ، دار السلام للطباعة والنشر ، ص ٩ .

٦- نصح

ومما سبق يتضح أن الشريعة تقوم على ثلاث دعائم أساسية : " عقيدة عقلية وعبادة روحية ، ونظام قانونى قضائى " وهذا يدل على أن الإسلام من خلال شريعته دين ودولة (١) .

وسميت الأحكام الإسلامية بالشريعة لاستقامتها ولشبهها بمورد الماء لأن بها حياة النفوس والعقول كما أن فى مورد الماء حياة الأبدان . والشريعة والدين والملة بمعنى واحد - على رأى - وهو ما شرعه الله لعباده من أحكام ولكن هذه الأحكام تسمى شريعة باعتبار وضعها وبيانها واستقامتها ديناً باعتبار الخضوع لها وعبادة الله بها وتسمى ملة باعتبار إملائها على الناس (٢) .

ويفسر فضيلة الإمام محمود شلتوت العلاقات فى الشريعة والى تريط الإنسان بربه وبإخوانه المسلمين وإخوانه فى الإنسانية بالحياة كاملة بأنها تتمثل فى : أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم ، وتبادل المحبة والناصر على الدوام والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث ، والتعاون فى تقدم الحياة العامة والسلم العام . وحرية البحث والنظر فى الكائنات واستخدام أثارها فى رقى الإنسان والتمتع بلذات الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف (٣) .

وفى مجال الشريعة تحدث جوستاف لويون عن المرأة فى الإسلام وإباحة الإسلام لمبدأ تعدد الزوجات ، وقد دافع المؤلف بموضوعية عن هذه الأوضاع التى أقرها الإسلام وأوضح كيف أن الإسلام قد صان كرامة المرأة وحفظ لها حقوقها دون الأديان الأخرى فيقول : " إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما فى الأديان الأخرى من الصرامة ، وإن ما أحه

-
- ١- عبد الله ناصح طوان ، محاضرة فى الشريعة الإسلامية وفقهاها ومصدرها ، دار السلام للطباعة والنشر ، ص ٩ .
 - ٢- د / عرفة سالم حسن سيف الدين ، " دعوى تآثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني " حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ، العدد العاشر ، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م ، ص ٣١٧ .
 - ٣- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٠ هوامد ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريباً على الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمد
و أن هذه الشعوب لم تجد نفعاً جديداً في القرآن لهذا السبب" (١).

ويقول في موضع آخر: "... و أرجو أن يثبت عند القاريء الذي يقرأ هذا
الفصل بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانباً ، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام
طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به ، و يزيد الأسرة ارتباطاً ، و يمنح المرأة
احتراماً و سعادة لا تراهما في أوروبا . و أقول قبل إثبات ذلك ، إن مبدأ تعدد الزوجات
ليس خاصاً بالإسلام ، فقد عرفه اليهود و الفرس و العرب و غيرهم من أمم الشرق قبل
ظهور محمد . و لم تر الأمم التي أعتنقت الإسلام فيه نقماً جديداً إذا ، و لا نعتقد مع ذلك
وجود ديانة قوية تستطيع أن تحول الطبايع فتبتدع ، أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد
جو الشرقيين و عروقتهم و طرق حياتهم" (٢).

ويدافع عن هذا المبدأ قائلاً: "و بما أن الناقلم المؤقت مما يتعزز في جو الشرق
ولا يلائم مزاج الشرقيين ، كان مبدأ تعدد الزوجات ضريبة لازمة ... و لا أرى سبباً لجعل
مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري
عند الأوربيين ، و أبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه ، و بهذا ندرك مغزى تعجب
الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم و نظرهم إلى هذا الإحتجاج
شزراً . و من السهل أن ندرك علل إقرار الشرائع الشرقية لمبدأ تعدد الزوجات بعد أن نشأ
عن العوامل الجسمانية المذكورة آنفاً ، فحب الشرقيين الجم لكثرة الأولاد و ميلهم الشديد
إلى الحياة الأسرية و خلق الإنصاف الذي يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن
يكرهوها" (٣).

ويستطرد في تبريره ودفاعه عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام فيقول: "يتزوج
رب الأسرة صغيراً على العموم ، و تضعف زوجته الأولى بعد أن تكون ذات أولاد كثير على

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١٢٧ .

٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٧ .

٣- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٨ .

حين يبقى تام القوة فيضطر للزواج مرة أخرى بتحريض الزوجة الأولى غالبًا و بموافقتها تقريبًا . . . وقد يعجب المرء أول وهلة من حمل امرأة زوجها على الزواج بمرأة أخرى ، ولكن العجب يزول حينما نعلم أن النساء الإسلامية الزراعية هن الأئى يقمن بشئون المنزل مهما كانت شاقة .

ومن ثم ترى أن الزوجة تشير فى تلك الأحوال على زوجها بأن يبني بزوجة أخرى ولا سيما إذا ما علمت أنها تصنع تلك حينما تكون آخذة فى الهرم منهمكة فى واجبات الأمومة^(١) .

ويستكمل المؤلف دفاعه وإيراده للأسباب التى تدفع الرجل لتعدد الزوجات قائلاً "حبهم للذرية الكثيرة ، ولا عجب ، فالعقم عند الشرقيين من أعظم ما يصاب به إنسان والشرقي إذا ما رزق بضعة أولاد طمع فى زيادة عددهم ، وتزوج نساء أخروصلاً إلى هذا الغرض"^(٢) .

ويربط المؤلف حديثه عن تعدد الزوجات فى الإسلام بمدى تأثير الإسلام فى المرأة المسلمة وما كرمها به من حقوق جعلها تفوق كل النساء فى العالم ، وفى هذا الموضوع يتحدث المؤلف بموضوعية فائقة من منطلق الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة ووردت فيها آيات كثيرة فى القرآن فيقول : " لم يقتصر الإسلام على مبدأ تعدد الزوجات الذى كان موجوداً قبل ظهوره ، بل كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق ، والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعى وشأنها رفعا عظيما بدلاً من خفضها خلافا للمزاعمة^١ ككرة على غير هدى ، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية . . . أجل أباح القرآن الحلاق كما أباحته قوانين أوروبا التى قالت به ، ولكنه اشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف"^(٣) .

١- نصه ، ص ٤٠٠ .

٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٠٠ .

٣- نصه ، ص ٤٠١ .

ويقارن المؤلف بين وضع النساء فى المجتمع العربى قبل الإسلام وما أصابهن من وأد ، وانظر إليهن على أنهن مثل النهن ، وكذلك فى أوربا العصور الوسطى ، وبين وضعهن فى ظل الإسلام فيقول " أن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من إحترام المرأة ، والإسلام . إذا لا النصرانية ، هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، وذلك خلافا للإعتقاد الشائع ، وإذا نظرت إلى سنيوارت الأنصاري الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء ، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك فى هذا الأمر ، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى ومن ذلك ما جاء فى تاريخ غاران لولو هيران عن معاملة النساء فى عصر شارل مان وعن معاملة شارل مان نفسه لهن كما يأتى : " انقض القيصر شارل مان على أخته فى أثناء جدال وأخذ بشعرها وضربها ضرباً مبرحاً وكسرى بقفازة الحديدي ثلاثاً من أسنانها " ، فلو حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربة فى الوقت الحاضر لبدأ هذا السائق أرق منه لا ريب " (١) .

ويصل جوستاف لويون فى حديثه عن تكريم الإسلام للماء أدى ذلك إلى إشتهار كثريرات منهن فى العالم بكافة فروعه وخاصة فى بلاد الأندلس فيقول : " إن نساء ذلك الزمن - الذى كان للعلم والأدب شأن عظيم فيه ببلاد الأندلس - كن محبات للدرس فى خورهن ، وكان الكثير منهن يتميزن بدمائتهن ومعارفهن ، وكان قصر الخليفة يضم لبنى أى هذه الفتاة الجميلة العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم ، والكتابة البارعة التى كان الخليفة يعتمد عليها فى كتابة رسائله الخاصة . . . وكانت فاطمة تكتب بإتقان نادر ، وتملك مجموعة ثمينة من كتب الفن والعلوم ، وكانت خديجة (٢) تنظم الأبيات الرائعة وتنشدها بصوتها الساحر ، وكانت مريم تعلم بنات الأسر الراقية فى أشبيلية

١- جوستاف لويون حضارة العرب ، ص ٤٠٣ .

٢- خديجة المنكورة هنا ليست خديجة بنت خويلد وإنما هى إحدى جواري عبد الرحمن الثالث فى الأندلس وكانت شاعرة تقرأ الشعر .

وكانت راضية نابغة عصرها في القريض... " (١) وغيرهن كثيرات. ولكي يثبت المؤلف بالدليل القاطع أن الإسلام قد كرم المرأة تكريمًا عظيمًا فيقارن بينها وبين النساء في المجتمعات الأخرى، في أسبرطة في اليونان، وفي أسبانيا وغيرها من المجتمعات الأخرى التي تحتقر شأن المرأة (٢).

ويختتم المؤلف حديثه عن المرأة في الإسلام وتأثير الإسلام على أوضاعها على عكس وضع المرأة في المجتمعات الأخرى فيقول: "... إن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب وأن حب الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نموًا في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم، وأن الإسلام حسن حال المرأة كثيرًا، وأنه أول دين رفع شأنها، وأن المرأة في الشرق أكثر احترامًا وثقافة وسعادة منها في أوروبا على العموم تقريبًا" (٣).

ويتطرق المؤلف بعد ذلك للحديث عن نظام الميراث في الإسلام، وقد أصاب حين وصف هذا النظام بالعدل والإنصاف فيقول "وتعد مبادئ الموارث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك هذا من الآيات التي أنقلها منهم ولم يبصر في القرآن جميع الأحوال التي عالجه المفسرون فيما بعد وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى روحها العامة، ويظهر من مقابلي بينها وبين الحقوق الفرنسية، والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات، اللاتي يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف حقوقًا في الموارث لا تجد مثلها في قوانيننا" (٤).

وفي حقيقة الأمر أن نظام الميراث يعد من النظم التي ينفرد بها الإسلام دون سائر النظم سواء كانت وضعية أم سماوية، لأنه أعطى سهمًا لكل وارث من الأهل وكذلك

١- جومستاف لويون، حضارة العرب، ص ٤٠٤.

٢- نفسه، ص ٤٠٦ - ٤٠٩.

٣- نفسه، ص ٤١٥.

٤- جومستاف لويون، حضارة العرب ص ٣٨٩.

قرر لأجل توزيع التركات نخلما يكاد يكون فريداً فى نوعه ، و أيضاً لأنه منح الأنتى نصيبا عظيما فى هذا الميراث (١) .

وقد بنى الميراث على قواعد أساسية فى الشريعة الإسلامية تتمثل فى ، -

أولاً : علاقتهى القرابة و الزوجية ، فالقرابة تشمل الآباء و الأبناء و الأخوة و الزوجية تشمل الزوج و الزوجة .

ثانياً : إلغاء صفات الذكورة و الأنوثة ، و الصغر ، و الكبر ، فالكل منهم حق الميراث .
ثالثاً : أن الأصول و الفروع لا يسقطون فى أصل الإستحقاق بحال ما ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية النصيب .

رابعاً : لا إرث للإخوات مع وجود الأبوين و إن كانوا ينزلون بنصيب الأم من الثلث الى السدس .

خامساً : أنه متى اجتمع فى الوارثين ذكور و إناث أخذ الذكر ضعف الأنتى (٢) .

وقد فصل القرآن نظام الميراث بين الأهل و الأقرباء فىقول الله تعالى ﴿ يُوْصِيْكَ اللهُ فِيْ اَوْلَادِكَ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْاُنثٰى فَاِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اَثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُورِثُهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ اِمَّا تَرَكَ اِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَاِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ اَبَوَاهُ فَلِاُمِّهِ الثُّلُثُ اِنْ كَانَ لَهُ اِخْوَةٌ فَلِاُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يُوْصِيْ بِهَا اَوْ دِيْنٌ اَبَاؤُكُمْ وَاَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُوْنَ اَيُّهُمْ اَقْرَبُ لَكُمْ فَرِيضَةٌ مِّنْ اَللّٰهِ اِنَّ اَللّٰهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿٣﴾

١- مصطفى الرافعى ، الإسلام نظام إنسانى ، ص ٨٢ . فالواضح أن التفاوت فى الميراث بين الرجل و المرأة ، جاء نتيجة للتفاوت بينهما فى الإعباء المالية المفروضة على كل منهما شرعا . فلو افترضنا أبا مات و ترك ابنا و بنتا فالابن يتزوج و يدفع مهرا أو يدخل بالزوجة فيدفع نفقتها على حين تتزوج البنت فتأخذ مهرا ، ثم يدخل بها زوجها فيلتزم بالنفقة و لا يكفلها شيئا و إن كانت من أغنى الناس فإذا كان قد ترك لهما مائة و خمسين ألفا مثلا . أخذ الابن منها مائة الف و أخته خمسين ، فعندما يتزوج الابن قد يدفع مهرا و هدايا تقدرها بخمسين ألفا فينتص نصيبه إلى خمسة و سبعين ألف ، فى حين تتزوج البنت فتقبض مهرا و هدايا تقدرها بما قدرنا به ما دفع أخوها لمثلها فهنا يزيد نصيبها خمسة و سبعين ألف فيتصاوبا .

٢- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ٢٤٢ .

٣- سورة النساء ، آية ١١ .



ويقول تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مَالٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ مَالٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهِمَا أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهِمَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُوسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهِمَا أَوْ دِينَ غَيْرَ مُضَاكِرٍ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١﴾ ويقول سبحانه : ﴿سَتَقْفُونَكَ قُلُوبُ اللَّهِ لِيُقْفِيَكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنْ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهِيَ تَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْمَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ .

وهكذا وكما يقول الدكتور على عبد الواحد وافي (٣) : " ووضع الإسلام للميراث نظاماً حكيماً يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً ، وبحول دون تضخمها وتجمعها في أيدي قليلة ، ويفتت رهوس الأموال إلى ملكيات صغيرة ، وذلك أنه يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى فيوسع بذلك دائرة الإنتفاع بها من جهة ويحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كبيرة في يد فئة محدودة من الناس . فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروات الكبيرة التي يتفق تجمعها في يد بعض الأفراد أن تتوزع ملكيتها بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس وتستحيل إلى ملكيات صغيرة وهذه هي أمثال طريقة لتقليل الفروق بين طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض " .

وقد حذر الله من الأخلال بهذه القواعد فيقول ﴿يَلَاكُ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

١- سورة النساء ، آية ١٢ .
٢- سورة النساء ، آية ١٧٦ .
٣- حقوق لإنسان في الإسلام ، مكتبة نهضة مصر ، ص ٢١ ، ٢٢ .

فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَقِصْ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ،
يُدْخِلْهُ نَارًا كَبِيرًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ (١)

ومن النظم الحضارية التي تحدث عنها المؤلف بموضوعية تامة و أصاب في تحليله للوضع أو النظام القضائي في الإسلام القائم على العدل والإنصاف فيقول : " ونظام القضاء والمرافعات عند المسلمين بسيط إلى الغاية ، أى أنه يقوم بالقضاء قاض منفرد معين من قبل ولي الأمر ، ولا تستأنف أحكام القاضي ، ويحضر الخصوم أمام القاضي بدعوة ، ويترافعون إليه مشافهة ، ويعرضون عليه بيناتهم التي قد تكون على الإقرار أو الشهادة أو التحليف ، فينطق بالحكم حالا ، وقد أتبع لي في مراكش أن أشاهد إصدار هذه الأحكام المختصرة ، فرأيت القاضي جالسا فى الساحة التى هى أما قصر الوالى والخصوم والشهود حوله جثيا موجزين قضاياهم ، وأحكام القاضي تنفذ فوراً حينما يكون ذلك ممكنا كأن يأمر بجلد المذنب بضع جلدات ، أجل قد لا تضمن تلك الطرق البسيطة العدل كما تضمنه طرقنا الأوروبية المعقدة ، ولكنها لا تضعب وقت المتقاضين الثمين على كل حال ، ولا تثقلهم بالنفقات القضائية التى تدفع فى العالم فتخرب بيوتهم غالبا . وتكون أحكام أولئك القضاة عادلة على العموم مع بساطة تلك الطرق ، فروح العدل والإنصاف نامية كثيرا فى العرب ويرجع نؤها فيهم إلى أن العدل أساس الحياة فى تلك المجتمعات التى لا تزال على الفطرة ، لا إلى أمر القرآن وحده بالعدل على أن العدل من أحسن الفضائل " (٢) .

وحديث جوستاف لويون يتطابق تمام التطابق مع بداية النظام القضائي فى الإسلام ، ففى بدء عهد الإسلام ، لم يكن لجماعة المسلمين من قاض غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كانت الطريقة التى يعتمدها فى القضاء طريقة وجدانية صرفة لا تعليل فيها ولا فخامة ، بل هى تنحصر فى تنفيذ قول الله تعالى : ﴿... فَأَحْكُم

١- سورة النساء ، آية ١٣ ، ١٤ .

٢- جوستاف لويون ، حضارة العرب ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٢﴾.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحكم بين الناس بما ينزل الله عليه من الوحي وبحضرة التخاصمان إليه مختارين . فيسمع كلام كل منهما ، وكانت طريقته هي الإثبات بالبينة وباليمين وبشهادة الشهود ، وبالكتابة وغيرها ^(٣) . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر" ^(٤) ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم " امرت أن أحكم بالطاهر ، والله يتولى السرائر " ^(٥) .

ويقول عليه السلام : "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر" ^(٦) . وكان عليه الصلاة والسلام لا يحايي أحد من المتخاصمين ، فأثر عنه عليه السلام أنه قال ... فإذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء ^(٧) .

والدليل على هذه الأسس التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم للقضاء ، أنه جاء رجلان يختصمان في مواريث بينهما قد درست ، وليس بينهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلي رسول الله وإنما أنا بشر ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أفضى بينكم على ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار... فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقي

١- سورة المائدة ، آية ٤٨ .

٢- سورة النساء ، آية ٦٥ .

٣- مصطفى الزافعي ، الإسلام نظام إنساني ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

٤- رواه الإمام النووي في الأربعين النوويه ، رقم ٣٣ .

٥- رواه ملا علي قاري في الأزرار المرفوعة في الأخبار الموضوعه ، ص ١٢٤ .

٦- رواه البخاري في كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا أصاب أو أخطأ ، ج١٣ ، ص ٣١٨ ، رقم ٧٣٥٢ .

٧- أخرجه أو داود في كتاب الأفضية باب "كيف القضاء" ج٣ ، ص ٣٠٠ ، من حديث علي رضي الله عنه

لأحى ! فقال لهما النبي : أما إذا عقوما فاذهبا فلنقتسما ، ثم توحبا الحق ، ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه ^(١) .

ومن هذا المنطلق تم وضع الشروط الفقهية والصفات التي يحب توافرها في القاضي المسلم وخاصة بعد اتساع رقعة الدولة العربية والإسلامية والفتوحات الإسلامية وتمصير الأمصار التي فتحها المسلمون ، ومن هذه الشروط :-

[أن يكون القاضي حراً مسلماً بالغاً عاقلاً عادلاً عالماً مجتهداً] وإلى جانب هذه الشروط اختلفوا في كونه أن يكون قاضياً واحداً في الإقليم أو اثنين ، فاشتراط مالك أن يكون واحد ، أما الشافعي فيرى أنه من الجائز أن يكون هناك قاضيان في المصر ^(٢) إذا رسم لكل واحد منهما ما يحكم فيه ^(٣) كما اشترط البعض الآخر الكفاية الجسدية فلا يكون قد أصابه العمى أو الخرس أو قطع أحد الأطراف ^(٤) .

رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في القضاء :-

وقد وضع عمر بن الخطاب في رسائله للقضاة في الأمصار الإسلامية الدستور الذي يسيرون على هديه في الأحكام ويعتبر أساس علم المرافعات في القضاء ، فيقول فيه :
"بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك : أما بعد فالقضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . وسوبين ^(٥) الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حقك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البيينة على من ادعى واليمين على من أنكر

- ١- مصطفى الراعي ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ . " ألحن بحجته " ألحن الميل عن جهة الاستقامة ، يقال لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق ، و أراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة وأظن لها من غيره ، ويقال لحن فلان إذا قلت له كلام يفهم ويخفى على غيره لأنك تعمله بالتورية عن الواضح المفهوم ، ومنه قالو لحن الرجل فهو لحن إذا فهم و فطن لما لا يفطن له غيره . ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ج ٤ ، ص ٥٦ .
- ٢- ابن رشد القرطبي الأندلسي ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ٢ ، دار الكتاب الحديثة ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ابن حزم ، المحلى بالآثار ، ج ٨ ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، ص ٤٢٧ .
- ٣- منيب محمد ربيع ، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي و تطبيقاتها ، سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة الرابعة عشر ، الكتاب الثاني القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٥٩ .
- ٤- اعلل وساروى بينهم .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقل وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما إختلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم أعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور بنظائرها ، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بيّنة أمدأ ينتهى إليه ، فإن أحضرت بيّنة أخذ بحقه ، وإلا وجهت القضاء عليه فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلود فى حد أو مجرما فى شهادة زور أو ظنينا (متهما) فى ولاء أو قرابة . فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبيّنات ، وإياك والقلق الضجر والتأني للناس والتنكر للخصوم فى مواطن القلق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الزجر ، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شاذه (١) .

ولأن القضاء هو الأداة المهيمنة الفعالة لحفظ الحقوق وصيانتها فقد ارتكز على العدل ، واعتبره الإسلام نوعاً من أداء الأمانات (٢) فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴾ (٣) ونستنتج من كتاب عمر بن الخطاب إلى القضاة ، أن القضاء فى الإسلام يرتكز على أمور منها : البساطة والروحانية والإعتماد فى الغالب على ضمير القاضي وتدينه ، لا على علمه وتعقله (٤) . وقد كان القاضي يحكم بما يوجبه إليه اجتهانه ، وخاصة قبل تبلور المذاهب الأربعة ، حيث كان يرجع القاضي إلى الكتاب والسنة فى الفصل فى الخصومات ولم يكن القضاء متأثراً بالسياسة فقد كان القضاة مستقلين بأحكامهم ، لا يتأثرون بميول

١- د. / حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ج١ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

٢- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، ص ٤٤٨ .

٣- سورة النساء ، آية ٥٨ .

٤- الرانعى . المرجع السابق ، ص ١٦١ .

الدولة الحاكمة^(١). ومن الواضح فى كتاب عمر رضى الله عنه تركيزه على المساواة باعتبارها إحدى أهم الركائز التى يقوم عليها النظام القضائى فى الإسلام ، فلا فرق عند القاضى المسلم بين غنى أو فقير ، ولا بين قوى أو ضعيف ، ولا بين صاحب المنصب وأحد الناس .

كما نراه مهتماً أيضاً بمسألة التحرى الدقيق فى الحكم ، بحيث إذا راجع القاضى نفسه ولم يطمئن قلبه تمام الاطمئنان إلى الحكم الذى أصدره ، فلا يستنكف ولا يمنعه الحياء أن يعود فى حكمه ، لأن مراجعة الحق - كما قال الفاروق رضى الله عنه - خير من التماذى فى الباطل .

وبالجملة ، فإن هذا الكتاب يعد بحق دستوراً متكاملًا للنظام القضائى فى الإسلام ويحتاج إلى مراجعة دقيقة من أصحاب هذا الشأن ، ولا يتسع المجال هنا لاستعراض كافة ما تضمنه من أسس وركائز للنظام القضائى .

وعلى مر العصور تطور النظام القضائى الإسلامى وأصبح هناك ديوان للقضاء ويقوم بمساعدة القاضى مجموعة من المساعدين والأعوان لإقرار العدل بين المتظالمين وهم: الحماة الدين كانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء . وكذلك الأعوان الذين يقومون برد الحقوق إلى أصحابها بعد صدور الحكم . والفقهاء الذين يساعدون المسائل الشرعية التى تشكل عليه . فضلاً عن الكتبة الذين يسجلون الأقوال ، والشهود الذين يشهدون على ما يصدره القاضى من العدل والحق^(٢) .

١- نفسه ، ص ١٦٢
٢- نفسه ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

الرق:

كما أصاب و آجاد جوستاف لوبيون عند حديثه عن الرق في بلاد الإسلامية ، ولم تمنعه مسيحيته عن الإعتراف بأن الإسلام قد كفل كل الحقوق و الحريات لهؤلاء الرقيق بدرجة أن الأرقاء أنفسهم بوضعهم الممتاز عند المسلمين لم يكونوا يلجأون بأي حال من الأحوال بالمطالبة بالحرية لأنهم يتمتعون بكافة الحقوق التي منحت لهم أكثر من تمتع الأحرار بحريتهم ، فيقول : " و اعترف جميع السياح الذين درسوا الرق في الشرق درساً جدياً بأن الضجة المغرزة التي أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح وأحسن دليل يقال تأييداً لهذا هو أن الموالي الذين يرغبون في التحرير بمصر ينالونه ببإبداء رغبتهم فيه أمام أحد القضاة و أنهم لا يلجأون إلى حقهم هذا ، قال مسيو إيبر مشيراً إلى ذلك : " يجب عد الرقيق في بلاد الإسلام مخوتاً ^(١) على قدر الإمكان ^(٢) .

ويستشهد على ذلك بكثير من المؤرخين و المؤلفين الغربيين فيقول مسيو شارم : " يبدو الرق في مصر أمراً ليئلاً حيناً نافعاً منتجاً ، و يعد إلغاؤه فيها مصيبة حقيقية ، ففي اليوم الذي لا يستطيع وحوش أفريقية الوسطى أن يبيعوا فيه أسرى الحرب ، ولا يرون فيه إطماعهم ، لا يحجمون عن أكلهم ، فالرق ، وإن كان لطفة عار في جبين الإنسانية ، أفضل من قتل الأسرى أكل لحومهم إذا ما نظر إليه من وجهة نظر هؤلاء الأسرى ، و ذلك على الرغم من رأى محبي الإنسانية من الإنجليز الذين يقولون إنه أجدر بكرامة الزنوج أن يأكلهم أمثالهم من أن يسودهم اجني " ^(٣) .

وقال مدير مدرسة اللغات في القاهرة مسيو دو فوجاني : " ترى الأرقاء الذين يستفيدون من الحرية الممنوحة لهم قليلين إلى الغاية مع أن هذه الحرية تسمح لهم بأن يعيشوا كما يشاءون من غير إزعاج ، فالأرقاء يفضلون حال الرق السالم من الجور على

١- المبخوت أي المحظوظ ، المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص ٤٢ .

٢- جوستاف لوبيون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٧ .

٣- جوستاف لوبيون ، حضارة العرب ، ص ٣٧٧ .

حال القلق الذى يكون مصدر آلام ومتاعب لهم فى الغالب... وترى الأرقاء فى مصر أحسن حالا مما كانوا عليه قبل استرقاقهم بدلا من أن يكونوا من النائسين المناكيد وبلغ الكثيرون منهم - ولا سيما النيص - أرقى المناصب فى مصر، ويعد ابن الأمة فى مصر مساويا لابن الزوجة فى الحقوق، وإذا كان ابن الأمة هذا بكر أبيه تمتع بكل ما تمنحه البكرية من الامتيازات، ولم تكن من غير الأرقاء زمرة الممالك التى ملكت مصر زمنا طويلاً، وفى أسواق النخاسة اشترى على بك وإبراهيم بك و مراد بك الجبار الذى هزم فى معركة الأهرام، وليس من النادر أن ترى اليوم قائداً أو موظفاً كبيراً فى مصر لم يكن فى شبابه غير رقيق، وليس من النادر أن ترى رجلاً فى مصر كان سيده المصرى قد تبناه وأحسن تعليمه وزوجه ابنته^(١).

ويعترف جوستاف لوبون وغيره بأن الرقيق بالأرقاء لم يكن فى بلد دون آخر من بلاد الإسلام ولكنه كان فى كل بقعة من بقاع الإسلام، ويقول: "ولست مصر القطر الوحيد الذى يعامل فيه الأرقاء برفق عظيم، أي ما تراه فى مصر ترى مثله فى كل بلد خاضع للإسلام... وأن الأرقاء عند العرب من الأبناء المدللين أكثر من أن يكونوا من الأجراء"^(٢) وهذا دليل قاطع شهد به غير المسلمين على أن الإسلام نفسه هو الذى جاء بالأسلوب الأمثل لمعاملة هؤلاء الرقيق، وهذه شهادة حق.

فقد كانت القاعدة قبل الإسلام أن الرق منافع لجميع الحقوق المدنية، فكاننا كالنقيضين لا يجتمعان، فلم يكن الرقيق أهلاً لإجراء أى عقد، ولا يتحمل أى التزام ولا تملك عقاراً ولا منقول، وكل ما كان يقع فى يده عن طريق ميراث أو هبة أو وصية أو غير ذلك كان ينتقل بطريق ألي إلى مالكه، فكان الرقيق يعتبر فى مثل هذه الحالات مجرد جسر تعبير عن طريقه الملكية إلى سيده، وما كان يجوز أن تكون له أسرة ولا أن يتزوج بعقد كما يتزوج الأحرار^(٣).

١- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

٢- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣٧٨.

٣- د. عمر عبد العزيز قرشي، سماحة الإسلام، ج ٣، ط ١، دار الامتقمة، ١٩٩٠، ص ٢٨٥.

وليس لهم الحق فى تكوين أسرة بالمعنى القانونى الكامل . كان الإتصال بين دكورهم وإناثهم لا يعتبر زواجا وإما كان يتم باختيار مواليتهم . وفى صورة يقصد منها مجرد التناسل وتكاثر عدد الرقيق كما يحدث بين الأنعام^(١) .

أما الإسلام فقد عمل تدريجيا على منع الرق ، رغم أن الرقيق قد كثر عددهم فى بداية عهد الإسلام من كثرة الحروب وما نتج عنها من أسرى . وقد اختلفت جنسية الأرقاء فى بدء عهد الإسلام وباختلاف الأمم التى حاربها ، فقد حرم الإسلام :

١ - استرقاق المسلمين رجالاً أو ساءاً .

٢ - استرقاق الرجال من العرب ولو كانوا غير مسلمين .

٣ - استرقاق المعاهدين وغير المحاربين .

٤ - استرقاق الرجل الحر وأولاده من أمة .^(٢)

ولم يبق إلا الحرب التى كانت مصدراً أساسياً من مصادر الاسترقاق ، وقد قيده الإسلام بعدة قيود . بعد أن ضيق مجال الرق الوراثى . فقد حدد الإسلام أن تكون الحرب بين طائفتين من المسلمين لأن المسلمين لا يسترقون . وأن تكون شرعية بين المسلمين والكفار أو بين المسلمين والمشركين ، وبهذا ألغى الأسر والسبي بالنخاسة والإختطاف فضيق مجال الأسر . والأى يكون المسلمون فى الحرب معتدين وإذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم مخيرون فى أن يهنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وهكذا أصبح النظام الغالب فى الإسلام هو المن والفداء ، وقد طبقه الرسول عليه الصلاة والسلام فى أسرى بني المصطلق وفتح مكة وجنين .^(٣)

تطبيقاً لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوا فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَأِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ... ﴾^(٤) .

١- نفس المصدر .

٢- مصطفى الرافعى ، الإسلام نظام إنسانى ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

٣- د/ أحمد محمد الحوفى ، ساحة الإسلام ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

٤- سورة ممتد ، آية ٤

كما سار المسلمون على أنه إذا أسلم أسي فقد عصم نفسه وضمن حريته ، وكذلك إذا نحل عدو محارب دار الإسلام أمن على نفسه من السبي ، وإذا فقد أبطل الإسلام السترقاق بالخلف وما يشبهه^(١) .

وهكذا كما يقول الكتور على عبد الواحد وافى أن الإسلام لم يقر الرق إلا في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج وذلك بأن ضيق روافده ، بل لم يسمح ببقائها إلا لأجل معلوم ، ووسع منافذ العتق إلى أبعد الحدود . وبذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شئ بجدول مئرت مصبائه وانقطعت عنه موارده التي يستمد منها الماء : وخلق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف^(٢) .

و يفسر القول السابق منافذ العتق التي حددها و أقرها القرآن الكريم و تتمثل في -

١) أن يجري على لسان السيد بأي صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده سواء كلن قاصداً أو غير قاصد .

٢) أن يجري على لسان السيد لفظ يفيد " التدبير " أي يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده .

٣) أن يأتي السيد من جاريته بولد يعترف بينوته .

٤) أن يكتب السيد عبده ، ويتفق معه على مبلغ من المال يدفعه له في مقابل الحصول على حريته ، وقد كفل الإسلام للرقيق مصادر هذا المال فسمح لهم بالمتاجرة ، وحث جميع المسلمين على مساعدتهم والتصدق عليهم ، وتخصيص مبالغ من الزكاة والصدقات و من عقوبات ارتكاب الذنوب والجرائم لإفداء الرقيق وتحرير رقابهم للتكفير عن هذه الأخطاء والذنوب^(٣) . وقد قرر الإسلام هذه المنافذ والمصادر ترتيباً فيقول سبحانه وتعالى : ﴿... وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ

١- د / أحمد محمد الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

٢- حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١٣٥ .

٣- د / علي عبد الواحد وافى ، حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ٢١٢ .

مَا لِلَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ... ﴿١﴾ ويقول تعالى في التفكير عن القتل ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ...﴾ ﴿٢﴾.

والتفكير عن إفتار يوم في رمضان والحنث في اليمين يقول سبحانه ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعُمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ ﴿٣﴾. وعن كفارة الظهار يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآتَا...﴾ ﴿٤﴾ ويقول تعالى في الصدقات وتحرير الرقيق: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ...﴾ ﴿٥﴾ كما أمر الإسلام بحسن معاملة الرقيق. فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿٦﴾ وهكذا قرن قرآن الله سبحانه وتعالى حسن معاملة الرقيق. - وهم ما ملكت أيمانكم - بوجوب عبادته وعدم الشرك به ووجوب البر بالوالدين. ﴿٧﴾

وفى هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم" ﴿٨﴾. وقال كذلك صلى الله عليه وسلم: " إخوانكم خولكم (أي خدمكم وعبيدكم)

- ١- سورة النور آية ٣٣.
- ٢- سورة النساء ، آية ٩٢.
- ٣- سورة المائدة ، آية ٨٩.
- ٤- سورة المجادلة ، آية ٣.
- ٥- سورة التوبة ، آية ٦٠.
- ٦- سورة النساء ، آية ٣٦.
- ٧- د/ علي عبد الواحد وافي ، حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١٣٥
- ٨- أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج١، ص ٧٨، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب حق المملوك ج٤، ص ٣٤٢ رقم ٥١٥٦

جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل و ليلبسه مما يلبس^(١).

ومن الآثار أن عمر بن الخطاب لما سافر مع غلامه إلى بيت المقدس ليتفاوض مع النطريش في تسليم البلد عقب حصارها بجيش أبي عبيدة بن الجراح لم يكن معه هو وغلامه إلا ناقة واحدة ، فكانا يتناويان ركوبها الواحد بعد الآخر إلى أن اقتريا من بيت المقدس ، وكان الدور للعبد ، فلم يستكف خليفة المسلمين من أن يركبه ويسعى خلفه على أقدامه ، ودخلا بيت المقدس على هذه الحال . وقد مر عمر بمكة فرأى العبيد وقوفا لا ياكلون مع ساداتهم ، فغضب وقال لواليهم مؤنبا " ما للقوم يستأثرون على خدامهم " ثم دعا الخدم فأكلوا مع السادة في جفان واحدة^(٢).

كما نهى الإسلام الموالي عن إيذاء عبيدهم والتمثيل بهم ، فيرى ابن حنبل أن العبد يعتق ويصبح حرا إذا آذاه سيده بدون حاجة إلى حكم حاكم " ويحصل العتق بالفعل كما لو يحصل بالقول . فمن مثل برقيقه ولو بلا قصد ، فجدع أنفه أو أذنه أو نحوهما ، كما لو خصاه أو خرق عضوا منه كما لو خرق كفه ، أو حرق عضوا منه كإصبعه بالنار ، عتق بلا حكم حاكم^(٣) . وقد روى عن ابن عمر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه " ^(٤).

وكذلك حمى الإسلام الرقيق من الإعتداء عليهم من أى شخص آخر غير ساداتهم وأنهم فى مثل هذه الحالات من الاعتداء بالضرب أو القتل مثلهم مثل الأحرار ، فقد رأى أبو حنيفة أن الحر يقتل بالعبد^(٥) ، هذا انطلاقا واستدلالا بقول الله تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب ٢٢ المعاصي من أمر الجاهلية و لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، ج١ ، ص ٨٤ ، رقم ٣٠ عن أبي نر .
٢- على عبد الواحد والفي ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .
٣- على عبد الواحد والفي ، هامش ١ .
٤- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب صحبة المماليك و كفارة من لطم عبده ، ج ٣ ، ص ١٢٧٨ ، رقم ٢٩ وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب حق المملوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٤ ، رقم ٥١٦٨ .
٥- على عبد الواحد والفي ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْمَعْرِكَ بِالْمَعْرِكِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ... ﴿١﴾ واستنطاق الحكم من هذه الآية مبني على قاعدة أن " شرع من
قبلنا شرع لنا إلا فيما ورد فيه نص " وهذا هو مذهب طائفة كبيرة من الفقهاء على رأسهم
الإمام الأعظم أبو حنيفة و يفسر هؤلاء قوله تعالى في: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْقُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى... ﴾ ﴿٢﴾، بأن المعنى " ان قتل
الحر بالحر والعبد بالعبد قصاص ، وهذا لا ينفي أن يكون قتل الحر بالعبد قصاصا كذلك
لأن التنصيص لا يدل على التخصيص (٣) .

و فضلاً عن كل ما سبق قد كفل الإسلام الكثير من الحقوق المدنية لهؤلاء الرقيق مثل:-

١ - حق الحياة : حرم الإسلام القتل ، لا فرق في ذلك بين حر و عبد ، فقد قال الرسول
صلى الله عليه وسلم " المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ومن قتل عبده
قتلناه" (٤) ، وغير ذلك مما يثبت أن حياة العبد مقدسة كحياة الحر (٥) .

٢ - الحصانة الجسدية : منع الإسلام تشويه الجسد أو ضربه ضربا مبرحا ، ولم يجز
إلا ضربه ضربا خفيفا للتأديب (٦) ، وقد روى أن عبداً لزنباغ جاء
إلى النبي صلى الله عليه وسلم مجروح الأنف فسأله عن خبره فزعم أن
سيده هو الذي جدد أنفه ، فلما ثبت للنبي صدقه قال له " اذهب فأنت
حر " (٧) .

٣ - الحصانة العائلية : لقد منع الإسلام من التفريق بين العبد وعائلته (٨) .

١- سورة المائدة ، آية ٤٥ .

٢- سورة البقرة ، آية ١٧٨ .

٣- على عبد الواحد وافي ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ ، هامش ١ .

٤- رواه أبو داود في كتاب النيات ، باب من قتل عبده أو مثل به ، ج ٤ ، ص ١٤٧ ، رقم ٤٥١٥ .

٥- مصطفى الراعي ، الإسلام نظام إنساني ، ص ١١١ .

٦- نفسه

٧- أخرجه البيهقي في المنن الكبرى ، ج ٨ ، ص ٣٦ .

٨- مصطفى الراعي ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

٤ - حق النفقة : فرض الإسلام على السيد أن يقدم لعبده كسوته و طعامه بالمعروف فإن كان السيد بخيلاً مقتراً على نفسه راجع العبد القاضى ، فقد يلزم سيده بأن يلبسه أحسن مما يلبس و يطعمه أحسن مما يأكل^(١) .

٥ - الرفق بالرقيق : كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصى بالأرقاء فيقول : " لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون ، و أطمعوه مما تأكلون ، و يقول : إن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم "^(٢) .

وقد حافظ الإسلام على كرامة الأرقاء و صيانتها ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عند مخاطبة الأرقاء بكلمتي : "عبد و أمة " وطلب من المسلمين أن يستعملوا فى خطاب أرقائهم كلمات : "فتى و فتاة و غلام" ، أما الأرقاء فكان بينهم أن يخاطبوا أسيادهم بـ "ياربى " ، فآله ربههم^(٣) . فعن عمر : جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسلم فقال : يا رسول الله كم أعضو عن الخادم ؟ قال اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة^(٤) .
(٤)

وعن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى يقول : اعلم يا أبا مسعود ، فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اعلم أبا مسعود ، أن الله أقدرك عليك منك على هذا الخلام فالقيت السوط من يدي ، و قلت لا أضرب مملوكاً بعده أبداً "^(٥) .

المساواة :

وعن المساواة بين البشر فى الإسلام من النواحي الاجتماعية و السياسية فقد أصاب جوستاف لويون فى حديثه عنها فيقول : " و نختم قولنا فى نظام العرب الاجتماعية

- ١- مصطفي الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .
- ٢- أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى ، ج ٨ ، ص ٣٦ .
- ٣- مصطفي الرافعي ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .
- ٤- رواه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب حق المملوك ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ ، رقم ٥١٦٤ .
- ٥- رواه الإمام مسلم فى كتاب الإيمان ، باب صحبة المملوك و كفارة من لطم عده ، ج ٣ ، ص ١٢٨٠ ، رقم ٣٤ .

سأن نذكر أن العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقا لخطهم السياسية ، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوربا قولاً ، لا فعلاً ، راسح في طبائع الشرق رسوخاً تاماً ، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي ، وأنه ليس من الصعب أن ترى في الشرق خادماً زوجاً لابنة سيده وأن ترى أجزاء منهم قد أصبحوا من الأعيان " (١) .

ويستكمل حديثه بقوله " . . . صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمس رفاهية طبقات العمال ، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يسوي بها الإسلام بين الغنى والفقير والسيد والأجير على العموم ، وليس من المبالغة أن يقال ، إذًا ، أن الشعب الذي يزعم الأوروبيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأمر الجوهرى " (٢) .

لقد قرر الإسلام المساواة بين البشر في كل شيء ، فلا القيمة الإنسانية ، وفي الحقوق والواجبات ، وأمام القانون ، وفي المنشأ والمصير ، وفي الشعور والكرامة وكل هذا واضح جلي من خلال الآيات القرآنية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم ليضع القواعد الأساسية والمتينة في التعامل بين الناس فيقول سبحانه ليرد الناس جميعاً إلى أصل واحد ونسب واحد : ﴿ وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَإِنَّمَا كُنَّا نَارَةً أُخْرَى ﴾ (٣) ويقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (٤) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مُكِينٍ ﴿ ١٣ ﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَوْنًا الْوَعَائِمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ (٥)

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٩١ .

٢- نضه و ص ٣٩٢ .

٣- سورة طه ، آية ٥٥ .

٤- سورة المؤمنون ، آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١). ويقرر سبحانه أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى فيقول: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) ويقول تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سِوَاهُ يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٣) وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ فِيهَا ﴾ (٤).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٥) وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة على هذا المنهج القويم بأن التقوى والإيمان هما درجتا المفضلة بين الناس فكلهم متساوون في كل شئ وأصلهم أصل واحد فقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مؤكداً ذلك: "أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا قليبغ الشاهد منكم الغائب" (٥).

وتقاول ذات مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فاحتد أبو ذر على العبد وقال له "يا ابن السوداء" فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال "طف الصاع طف الصاع" أي قد تجاوز الأمر حده "ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح". فوضع أبو ذر خده على الأرض، وقال للأسود "قم فطأ على خدي" (٦). وهكذا لا يصبح اللون ولا الثراء والمال، ولا العصبية

١- سورة الإسراء، آية ٧٠.

٢- سورة الحجرات، آية ١٣.

٣- سورة النساء، آية ١٢٣، ١٢٤.

٤- سورة الحجرات، آية ١٠.

٥- أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج ٥، ص ٤١١.

٦- ذكره الزبيدي في إلحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، ج ٨، ص ٢٧٥.

ولا يصلح أى منها أن يكون أساساً للمفاضلة بين الناس فكل الأمور من الله سبحانه وتعالى هى الأساس للتفاضل والتمايز بين الناس عند الله (١).

فقد انكر زعماء العرب على النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ المساواة الذى بدأ تطبيقه فقالوا له: كيف تجلس إليك يا محمد وأنت تجلس إلى مثل بلال الحبشي وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وعمار، وسواهم من العبيد وعامة الناس؟ اطردهم ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك. فأبى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا: فجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فكاد أن يجيب رغبتهم (٢)، فنزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْمَشْيِ يُرِيدُونَ وَّجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا يَرَىٰ حِسَابَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَتَّعِلُّوا أَهْوَاءَهُمْ مِمَّا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَإِذْ آجَأءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا كُنتُمْ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ مَوْءًةً يَجْهَلُهَا ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهَا وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (٣).

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولي "بلال" على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة، وبلال كان مملوكاً (٤) اشتراه أبو بكر واعتقه، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ولي "بازان" الفارسي على اليمن، ولما مات ولي ابنه مكانه (٥).

ومن منطلق المساواة الكاملة بين الناس انطلقت العدالة الكاملة بين الناس دون النظر إلى الجنس أو لون أو دين، فقد اقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم من نفسه

١- محمد للبيهي، اللذين و النولة من توجيه القرآن الكريم، ط ٢، مكتبة وهبة، ١٩٨٠، ص ٢٧١-٢٧٤.

٢- طبرلة، روح الدين الإسلامي، ص ٢٩٨.

٣- سورة الأنعام، آية ٥٢ - ٥٤.

٤- كان بلال مولى أبي بكر ويكنى أبا عبد الله، وكان من مولدى السراة، واسم أمه حملة وكانت لبعض بنى جمع. انظر: بن سعيد، الطبقات الكبرى، ج ٣، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ص ١٢٣. وقد مر أبو بكر ببلال وهو يعذب فاشتراه من أميه بعبد له ليمود فأعتقه وأراحه من العذاب وذكر مشتراه لجامعة ممن أسلم من العبيد والإماء. انظر: ابن كثير، البداية و النهايه ج ٣، دار الفكر العربى، ص ٥٨.

٥- طبرلة، المرجع السابق، ص ٢٩٩.

فى غروة بدر فقد وجد "سوادا" خارجا عن النصف . فقال . " استوا يا سواد " وطعنه فى بطنه . فقال له سواد . " أوجعتنى يا رسول الله " فكشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن بطنه . وقال له . استقدمنى " !! هكذا بلا حقوق مقدسة . وبلا حصانة . وبلا هيبة مصنوعة . فالكل فى مجال الحق سواء ^(١) . وقد نادى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناس قبل وفاته . قائلاً : " أيها الناس من كنت له ظهرا فهذا ظهري . . . ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي " ^(٢) .

ويجب أن يكون العدل منطلقا من المساواة . مع ملاحظة أنه لا يمكن أن يتساوى معهم الكافر . فإذا كان لهم العزة فله الذلة . ولكن ليس معنى هذا أن يظلم بل نفي له بما عاهدنا عليه إذا أوفى لنا بما عاهدنا عليه ^(٣) . وقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال . فقد شكوا يهودى عليا إلى عمر بن الخطاب فى خلافة عمر . فلما مثلا بين يدي عمر . خاطب عمر اليهودي باسمه . بينما خاطب عليا بكنيته فقال له : أبا الحسن حسب عادته فى خطابه معه . فظهرت آثار الغضب على وجه علي .

فقال له عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل معه أمام القضاء على عدم المساواة . فقال على لا ولكننى غضبت لأنك لم تسويينى وبينه . بل فضلتنى عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتنى بكنيتى (و الخطاب بالكنية كان أسلوبا من أساليب التعظيم للمخاطب ^(٤)) وأوصى الخلفاء الراشدون كذلك القضاة والولاة فى الولايات بإقرار المساواة والعدل بين الناس جميعا ^(٥) .

-
- ١- د. توفيق يوسف الراعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية . ط ١ ، دار الوفاء بالمنصورة ١٩٨٨ ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
 - ٢- أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير ، حد ١٨ ، ص ٢٨٠ ، من حديث الفضل عن العباس رضى الله عنه
 - ٣- د. سعيد حوى ، الإسلام ، حد ٢ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٧ ، ص ٦٨
 - ٤- د. علي عبد الواحد وافي ، حقوق الإنتمان فى الإسلام ، ص ٨ .
 - ٥- نفس المرجع ، ص ٦ - ١٣ .

المبحث الثالث

شمولية الإسلام :-

وعن شمولية الإسلام ونفوذه السياسي والديني أصاب جوستاف لوبون في حديثه في هذا الصدد ، حيث اعترف بأن الإسلام دين ودولة وشامل لكل شيء في الحياة الإنسانية ، فيقول : " ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيما إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائما ، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرن واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى أسبانية وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي خفقت راية النبي فوقها " (١).

ومن هذا الامتداد العظيم للإسلام في العالم كان يمثل الدستور السياسي والديني للمسلمين ، فيقول جوستاف لوبون " ... ولو كان القرآن دستورا دينيا فقط ما كان هنالك كبير محذور ، ولكن القرآن إذا كان دستورا سياسيا ومدنيا أيضا ، وإذا كان بطبيعته ثابتا بدت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول في الأمم الثابتة نظما ، وحالت هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التي قيدت بقيود الماضي " (٢).

ويستكمل جوستاف لوبون في حديثه عن الأعياد الدينية التي شرعها الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، لم تكن دينية فقط ولكنها كانت مراسم سياسية لئلا (الجمع) شمل المسلمين فيقول : " وبلغ تأثير الإسلام في أدق شؤون العرب مبلغا تكون جميع مراسمهم أعمالا دينية ، ومن تلك المراسم أنكحتهم وخاناتهم التي وصفناها في فصل سابق والتي ليست في الحقيقة سوى أعمالا دينية ومدنية معا " (٣).

١- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ١٢٦ .

٢- نفسه ، ص ٣٩٤ .

٣- نفسه ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

وقد لعنت الإسلام نظر الإنسان إلى أن الله قد سخر له هذا الكون كله وأن واجبه أن يستخدم عقله في توظيف كل شىء من أجل خير الإنسان وعماراة الأرض فيقول الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوهَا ثُمَّ تَابُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (١). ويقول سبحانه أيضاً ليعطي الإنسان الفرصة للتفكير وإعمال عقله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢).

فالنصوص الدينية فى الإسلام ملزمة للإنسان المسلم فيما يتصل بالأصول والتشريعات الدينية، ولكن الإنسان له حرية الاجتهاد فى أمور الدنيا (٣) وهذا ما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله " أنتم أعلم بأمور دنياكم " (٤).

ويتضح لنا من آيات القرآن الكريم الذى هو دستور المسلمين أن الإسلام فضلاً عن أنه دعوة دينية إلى الحق، فهو أيضاً دستور للسياسة فى شئون الحكم وكل أمور الدنيا فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَمْتَدَدْتُمُ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعَكُمْ جَمِيعًا فَيُنزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) ويقول تعالى أيضاً ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْتُ عَلَيْكُمْ بِرُكُوبٍ ﴾ (٦) وقوله سبحانه ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (٧).

وكذلك فقد تناول القرآن الوسيلة والكيفية التى يتعامل بها المسلمون مع غيرهم وكيفية القضاء على الفتن، ومعاملة هؤلاء الذين يعملون على إثارة الفتنة فى المجتمع الإسلامى فيقول سبحانه ﴿ سَتَجِدُونَ الْعَرَبِينَ يَرِيدُونَ أَن يُأْمِنُوكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا

١- سورة هود، آية ٦١.

٢- سورة الجاثية، آية ١٣.

٣- د / محمود زقروق، الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٢٦، وزارة الأوقاف، ١٩٩٨ ص ٧١، ٧٠.

٤- رواه الإمام مسلم فى وجوب الفضائل ووجوب امتثال ما قاله شرعاً نون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معاش الدنيا على سبيل الرأى، ج ٤، ص ١٨٣٦، رقم ١٤١.

٥- سورة المائدة، آية ١٠٥.

٦- سورة الأنعام، آية ٦٦.

٧- سورة البقرة، آية ٢٧٢.

إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَمْتَرُوا لَوْ كَرِهُوا لَأَكْتُمُوا السَّلَامَ وَرَكَّبُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١﴾. وقد جاء القرآن
مفصلاً واضحاً في تعبيره عن مبادئ الحكم: سواء بين المؤمنين، أو بين الناس جميعاً، وأن
الوحي به حق، يعلمه أولئك السابقون على الإسلام من أهل الكتاب، كما يعلمه الذين
آمَنوا به من أمة الرسول عليه الصلاة والسلام (٢)، ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿ أَفَفَيْرَ
اللَّهِ ابْتِغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٣﴾.

وهكذا شملت العقيدة الإسلامية كل أمور حياة الإنسان الدنيوية، فأحكام العقيدة
الإسلامية، وهي تتعلق بأمور العقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر وهذه الأمور الاعتقادية
وأحكام الأخلاق، وهي المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم، وما يجب أن يتخلى عنه
كوجوب الصدق وحرمة الكذب. كما أن هناك أحكاماً تتعلق بتنظيم علاقة الإنسان
بخالقه، كالصلاة والصيام وغيرها من العبادات (٤).

وهناك كذلك أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم وهذه على أنواع -

- ١ - أحكام الأسرة من نكاح وطلاق وإرث ونفقة... وتسمى في الاصطلاح الحديث
بأحكام الأسرة أو قانون الأحوال الشخصية.
- ٢ - أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد ومعاملاتهم كالمبيع والإجارة والرهن والكفالة
وهي التي تسمى بأحكام المعاملات المعاملية أو القانون المدني.
- ٣ - أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى وأصول الحكم والشهادة واليمين والبيانات وهي
تخل فيما يسمى بقانون المرافعات.

١- سورة النساء، آية ٨٩ - ٩١

٢- د/ محمد البهي، الدين والنيل، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

٣- سورة الأنعام، آية ١١٤.

٤- د/ عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ط ٣، بغداد، ١٩٧٥، ص ٥٠.

٤ - أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية ، والحقوق التي يتمتعون بها والتكاليف التي يلتزمون بها ، وهذا يسمى بالقانون الدولي الخاص .

٥ - أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب وهذا يعرف بالقانون الدولي العام .

٦ - أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده ، وكيفية اختيار رئيس الدولة ، وشكل الحكومة وعلاقات الأفراد بها ، ويعرف بالقانون الدستوري ^(١) .

٧ - أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها ، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة ، وبين الأغنياء والفقراء ، ويعرف بالقانون المالي .

٨ - أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الأفعال المنهى عنها " الجرائم ومقدار عقوبة كل جريمة " ...

ويسمى بالقانون الجنائي ، والإجراءات التي تتخذ في تنفيذ هذه الأحكام والعقوبات للمذنبين يعرف بقانون تحقيق الجنايات أو قانون المرافعات الجزائية ^(٢) .

وقد عبر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذه الشمولية في الإسلام بقوله : " إنها الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت آياد الزمن " وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم " وامتدت عمقا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة " ^(٣) .

ويعلق على ذلك الدكتور يوسف القرضاوي فيقول : " إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال ، ليست رساله موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص ، ينتهي أثرها بانتهاؤه كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم . . . وإذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر ولا جيل ، فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة ولا شعب ولا ببطقة ، إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم ، وكل الأجناس

١- نفسه.

٢- نفسه

٣- د. يوسف القرضاوي ، مدخل لمعرفة الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٣

وكل الشعوب ، وكل الطنقات وهى كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل ، إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه ، ولا لروحه دون جسمه ولا لأفكاره دون عواطفه ، ولا عكس ذلك ، إنها رسالة للإنسان كله : روحه وعقله ، وجسمه ، وضميره وإرادته ووجدانه . . . والإسلام رسالة للإنسان كله فى كل مراحل حياته ووجوده . . . وأن الإسلام رسالة للإنسان فى كل مجالات الحياة ، وفى كل ميادين النشاط البشرى وكل جوانب الحياة " (١).

ويمكن تفسير كل ما سبق عن شمولية رسالة الإسلام من منطلق قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۗ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۗ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) وكذلك قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٥) .

- ١- د / يوسف القرضاوي ، منخل لمعرفة الإسلام ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٣ - ١٥٦ .
- ٢- سورة الأنبياء ، آية ٢٥ .
- ٣- سورة النحل ، آية ٣٦ .
- ٤- سورة الأنبياء ، آية ١٠٧ .
- ٥- سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .